٢

كنوز كهف الحكمة



دار الكتب العلمية

كنوز كهف الحكمة

في قديم الزّمان وسالف العصر والأوان، كانت تقبعُ قريةٌ صغيرةٌ إلى جانب جدول، تحيط بها جبالٌ عاليةٌ تغيب قممُها في السَّحاب. وكان يسيطرُ على أهل هذه القرية الوادعة هاجِسُ وجود كنزٍ نفيسٍ داخلَ كهفٍ في مكانٍ ما من تلك الجبال. وقد فشلت محاولاتٌ عديدةٌ لاكتشاف الكنز، وكان الهلاكُ نصيبَ كلّ الذين حاولوا الوصول إليه.

وكان في القرية فتىً شجاعٌ اسمه «سَدِر»، تملّكه فُضولُ العثور على الكنز المزعوم، فأَركنَ إلى الوحدة والانعزال والتّفكير والتّخطيط. فمضى متوغّلاً في الجبال والأحراش المترامية من حول القرية على أمل الاهتداء إلى ما يُرشده إلى الكنز. فكان يقضي سحابةَ نهاره باحثاً متجوّلاً، ثمّ يعود في المساء مُتعَباً خائباً. ولكنّه كان يردّد في قرارة نفسه ويقول: «لا بدّ من أن أهتدي ذات يوم إلى مكان الكنز».

لاحظتْ أمُّ الفتى حالَ ابنها فأشفقت عليه، فراحت تُلحّ عليه في السّؤال وتقول:

– يا بنيّ، ما لي أراكَ حزيناً كاسِفَ البال، لم تعد تمرح وتلعب كما يفعل أترابُك؟.. فما الذي يكدّرك ويشغل بالَك؟

ولكنّ الفتى كان يظلّ معتصماً بالصّمت لا يجيب. ولجأت الأمّ إلى وسيلة جديدة للتّخفيف عن ابنها، فقدّمت له ناياً وقالت له:

- يا بنيّ، ما دمتَ مُصرّاً على الاحتفاظ بسرّكَ فلا بأس عليك، ولكن إليكَ هذا النّاي، فقد كان والدُك، رحمه الله، ينفخُ فيه أشجانَه كلّما أَلَمَّ به خَطْبُ أو اعتراهُ هَمّ.

تناول «سَدِر» النّايَ ومضى إلى الأحراش على عادته كلّ يوم، وأخذ يداعبُ النّايَ وينفخ فيه، فكان النّايُ يُصدِرُ أنغاماً نشازاً في غالبيّتها، ولكنّه لم يتوقّف عن العزف، فقد استهوته النّغمات وأطربته ووجد فيها سلواه.

وذات يوم، حلَّ الظلامُ على «سَدِر» وهو ما يزال ينفخ في نايه، وكان قد أتقن عزف بعض النّغمات الشجيّة. وفجأةً برز من بين الأشجار شيخٌ وقورٌ وآبْتَدَرَه قائلاً:

- أيّها الفتى، لقد غابت الشمس وغرقت الغابةُ في الظلام، ولم ينقطعْ صوتُ نايِكَ عن سمعي، فثارتْ في نفسي رغبةُ حمايتك من وحوش الغابة، وأَحسِبُ أنّك قد تُهْتَ ولم تعد تعرف طريقَ العودة.

ردَّ الفتى وقد تنبّه إلى خطئه وقال:

- صدَقْتَ أيّها الشيخ الجليل، فأنا لم أنتبه لنفسي وقد حلَّ الظلام من حولي. فقد استبدَّ بي هاجسُ وجود كنزٍ خلف الجبال ولا يعرف أحدُ له طريقاً.

ابتسم الشيخ وقال:

-ولكنّك، يا بنيّ، صغير على مثل هذه المهمّة الصّعبة، والطريق إلى الكنز شاق ومحفوف بالأخطار المُهلكة.



ولكنك يا بنيّ صغير على مثل هذه المهمة الصعبة .

قال «سَدِر» :

- أنا لا آبَهُ بـالأخطار أبـداً، وجُلُّ مُنـايَ أن أعرفَ الـطريقَ الذي يوصلني إلى حيث الكنز المدفون.

قال الشيخ :

- ما دمتَ واثقاً من نفسك إلى هذه الدرجة، فهيّا قم والحقني إلى مسكني لتُمضي ليلَتكَ آمناً، وفي الصباح سوف أدلّك على الطريق الموصل للكنز.

تبعَ «سَدِر» الشيخَ وهو يسير وسط الأدغال حتى أطلّا على كوخ في أعلى الجبل حتى كاد يضيع في الغمام، وقد برز القمرُ بدراً في كَبِدِ السّماء وأضاء المكان من حولهما. دخـل وراء الشيخ إلى الكـوخ، وكان أشبه بصوامع المتعبّدين: الكتب الكثيرة تملأ رفوفَ جدرانه العتيقة، والشموعُ تضيء أركانه. فأشار الشيخ إلى «سَدِر» بأن يأوي إلى حجرة جانبيّـة ثمّ غاب هو في غيرها. وبعد حين سادَ الهدوء. . . وما هي إلا دقائق حتى استسلما إلى الرّقاد.

وفي الغداة، وبعد أن تناولا شيئاً من الطعام، قال الشيخ للفتى :

- يا بنيّ، إنّ ضالّتكَ المنشودة هي داخلَ كهفٍ يقع على قمّة الجبل السابع من سلسلة هذه الجبال، وهو مرصود بشعاع القمر يسقط على «تُـرس الحسَرات»، فيـدور التّرس ويـدور ولا يتوقّف لينفتح بـابُ الكهف إلّا عندما يُعزفُ لحنٌ شجيٌّ معيّن. وقمم الجبال السّبعة تربط فيما بينها سلالِمُ عندما تعترضُ صُدوعٌ ووديانٌ سحيقة. يا بنيّ، إنّ الطريق محفوفة بالمخاطر ولا يقوى على اجتيازها إلّا القلّة النادرة من الشّجعان الأقوياء! . . .

قال «سَدِر»:

– لقد قلت لك إنّي لا آبه بالأخطار ولديّ الشجاعة والإرادة القويّة. ولا ينقصني إلاّ من يعلّمني الألحان الشجيّة المعيّنة.

قال الشيخ:

– طِبْ نفساً وقرّ عيناً، فلسوف أعلّمك اللحن المنشود وألحاناً أخرى تحتاج إلى عزفها عند عبورك الكهوف والوديان.

ولم تنقضِ سوى فترة قصيرة حتى أتقن «سَدِر» عزف جميع الألحان التي لقّنه إيّاها الشيخ. ثمّ ودّعه بعد أن تزوّد للرّحلة وسلك الطريق المرسوم مُيمِّماً شطرَ الكنز المرصود.

لا أحدَ يعلمُ كم من الوقت سار «سَدِر» وكم من المسافات طوىٰ حين ظهرت أمامه قمم الجبال الشاهقة، فحثّ الخُطىٰ وهو ما يزال عند سفوحها، فإذا بالصّخور تتحوّل إلى أشكال مرعبة والأشجار تتحرّكُ وكأنّها تنقضّ عليه، وحتى الأعشابُ صارت تمورُ من تحت قدميه كأنّما تريد ابتلاعَه... فتناول نايَه على عجلٍ ونفخ لحناً شجيّاً، فإذا بالصّخور تتفتّت وتزول، والأشجارُ تعود إلى وضعها الطبيعي ويعتلُّ نسيمها وتتراقص أوراقها، والأعشاب تتحوّل إلى مروجٍ موشّاةٍ بألوان الورود والرّياحين، حتى دخل الكهف الأوّل. ولشدّ ما أدهشه ما بلغ مسامعَه من ألحان عذبة شجيّة لكأنّ آلاف البلابل والعَنادِل تصدح دفعةً واحدةً لحناً ساحراً.

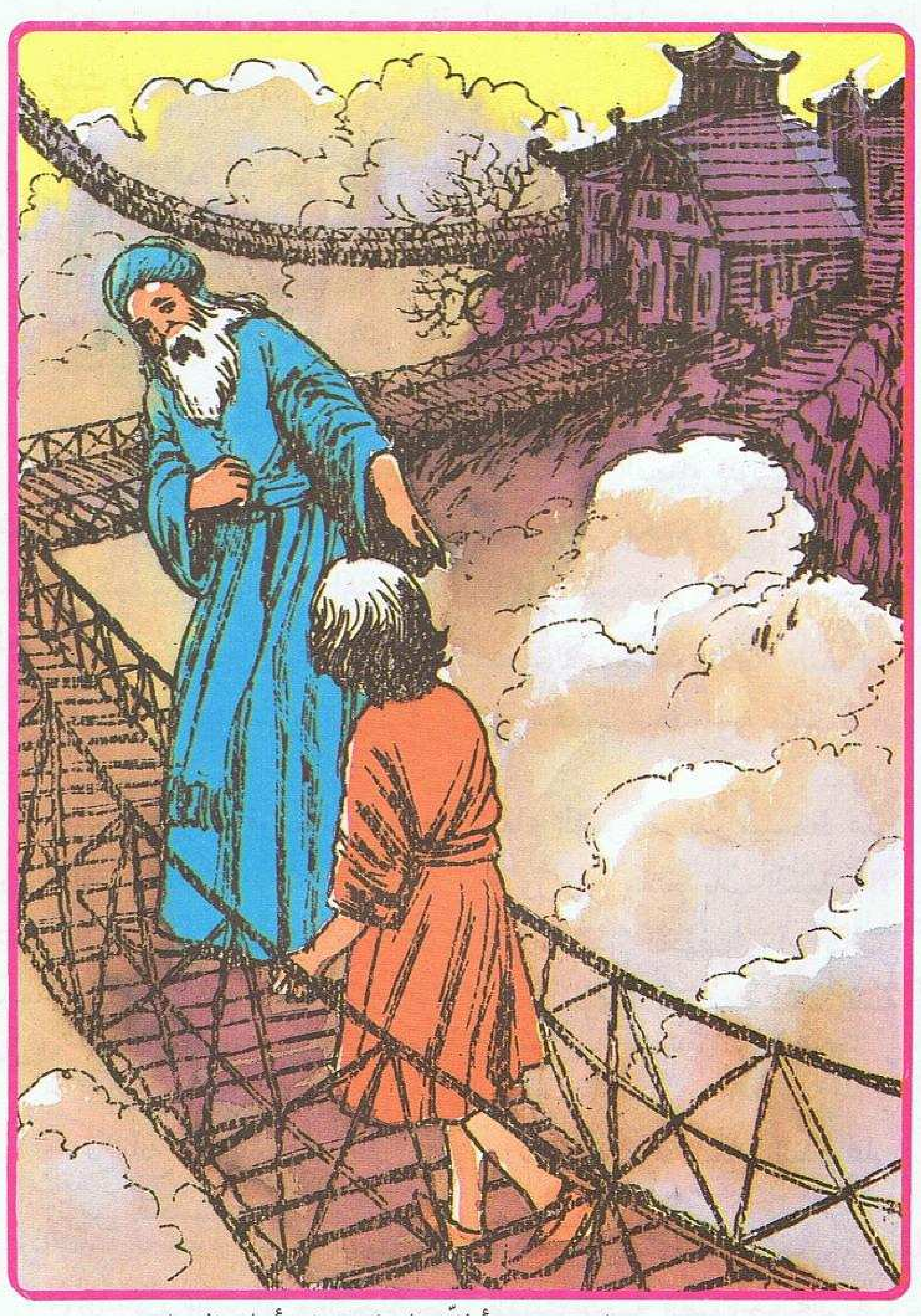
اجتاز «سَدِر» الكهفَ الأوّل وخرج منه نشوانَ بالألحان الشجيّة التي أطربته، فوجد أمامه جسراً من الحبال المتينة تضيعُ نهايته في الغمام، فجسّ بقدمه أرضه فألفاهُ ثابتاً قويّاً، فسار عليه بحذر شديد خشيةَ أن يتعثّر

وتزِلّ قدمُه فيسقط في الهاوية. وعندما انفرج الغمامُ عن كوّةٍ أبصرَ من خلالها العلوّ الشاهق الذي هو عليه، هالَهُ المشهدُ وكاد ينتابه الدُّوار، فأسرع الخطىٰ حتى بلغ الكهف الثاني. وكان مملوءاً بأنواع عديدة من الحيوانات، منها الأليف ومنها المفترس، وكانت تتوزّع على مرتفعات الكهف وصخوره، فتراءى له أنّها على وشك الانقضاض عليه وافتراسه، فبادر إلى عزف لحنٍ شجيّ كما أشار عليه الشيخ الجليل، فإذا بالغزلان والقرود والفُهود والنّمور وغيرها من الحيوانات تتقافز أمامه طرباً... فانشرح صدرُه، وارتاحت نفسُه، ولم يتوقّف عن العزف حتى بلغ الكهف الثالث. وكان يجري داخل هذا الكهف نهرٌ فيه أنواعٌ كثيرة من الأسماك والتّماسيح والحيتان وأفاعي الماء وغيرها من الحيوانات المائيّة. ومرّةً أخرى عزف لحناً شجيّاً معيّناً، كما علّمه الشيخ الجليل، فقفزت الأسماك في الفضاء طرباً، وعقدت التماسيح حلقات مرحٍ وحُبور وفَغَرتْ أشداقها تُصدر أصواتاً شجيّة...

وهكذا استمرّ «سَدِر» يعزف لحناً بعد لحن ونغماً إثْر نغم، ويجتاز كهفاً تِلوَ كهف، وهو يمرّ بعجائب المخلوقات كأنّ العالم كلّه قد حُشِر في تلك الكهوف، فصار في حالة وجدٍ وهيام ممّا شاهد من مخلوقات لا حصرَ لها.

وأخيراً، برز أمامه الكهف السّابع، وهو نهاية مطاف رحلته، فتلفّت إلى الوراء لينظر ما خلّف، فلم يرَ سوى بعض القمم تشرئبّ في السّماء خلال بحر من الغَمام.

حطّ «سَدِر» الرّحال عند نهاية السّلالم وتَهالكَ عند أوّل صخرة اعترضته، واستلقى لينال قسطاً من الرّاحة. فحدّث ذات نفسه وقال:



تبع « سدر » الشيخ حتى أطلّا على كوخ في أعلى الجبل .

- هذه الرّحلة قد أنهكت قوايَ وخوَّرَتْ عزيمتي، فَحَرِيٌّ بي أن أكتفي بما نلتُه من خبرة ومعرفة وأعود إلى أهلي وعشيرتي وأستثمر ذلك في خدمتهم.

ولكنّ تردّده لم يَطُلْ كثيراً، فقد انطلق من أعماقه نداءٌ يُلِحُّ عليه بالمُضيّ إلى هدفه الذي شقيَ من أجله ويقول:

- لا خيرَ في آمرِىءٍ نهضَ لغايةٍ جُلّىٰ وقصَّرَ دونها! . . .

* * *

لامَستِ الشمسُ ذُرىٰ الجبال المُشرئبّة في الفضاء فلوّنتها وأرسلت أشعَّتها فأضاءت رؤوس الغمام. هَبَّ «سَدِر» من مكانه وراح يبحث عن مدخل الكهف مسرعاً حتى اهتدى إليه، ووقع نظرُه على حجر نُقشت عليه العبارة التالية:

«صاحبُ الصّبر سُلطانٌ مُؤَزَّرٌ بالنّصر».

وتذكّر «سَدِر» أقوال الشيخ: «إنّ شُعاع القمر وهو بدرٌ سيسقط على «ترس الحسرات» ولسوف يدور الترسُ ويدور ولن ينفتح بابُ الكهف إلاّ عندما تعزف اللّحنَ المنشود». فجلس أمام مدخل الكهف وراح يتأمّل السّماءَ وقد أخذت نجومُها تظهر واحدةً بعد أخرى، فحدَّث ذات نفسه وقال:

- لن أدعَ النّومَ يتمكّن مني فتفوتني لحظةُ سقوط شعاع البدر على «ترس الحسرات».

وظلّ سهرانَ يراقب النّجوم حتى ظهرت نجمة الصباح، ولم يبرز

القمر إلّا بعد أن انبلج الفجرُ، فظهر هلالاً مثل حاجب الأميرة، ولم يلبث أن اختفى وراء الغمام.

أخذت الليالي تتوالى والقمر يزداد رويداً رويداً قوساً رفيعاً، ولكنّ «ترس الحسرات» بقي ساكناً. دبَّ المللُ إلى نفس «سَدِر» من طول الانتظار في ذلك المكان القَفْرِ الذي لا يرتاده أحد، سوى بعض الطيور الجارحة، وكان النّاي سلواه الوحيد.

وأخيراً برز القمرُ بدراً فوق الغمام وقد اكتملت استدارتُه وراح ينداح في القبّة السماويّة بغنجٍ ودلال حتى توسّطها وقويت أشعّتُه، فاخترقت حزمةٌ منها ثقب الصخرة وضربت «ترس الحسرات» فدارَ مُطلِقاً صريراً حادّاً. تناول «سَدِر» نايَه على عَجَل ونفخ فيه اللحن المنشود، فإذا بالصّخرة تنداح عن فوّهَة الكهف، فدخله مُسرعاً، وفي الحال سمع أصواتاً ملأت الفضاء ألحاناً شجيّةً، كان مصدرُها عشرات الأجراس الصّغيرة الذهبيّة المُدلّاة من سقف الكهف وقد حرّكتها أمواج النّسيم التي تدفّقت إلى الكهف.

كان داخلُ الكهف أشبهَ بقاعة عرش ملكيّ غنيّ تتداخل قناطرُه وتتشابكُ في أعالي الكهف وعلى الجَنَبات كانت تقوم تماثيل على هيئات مختلفة، وكان في وسط القاعة منضدةٌ حجريّةٌ رائعةٌ نُحِت على صدرها «ترس الحسرات» ونُقِشت عليه صورة الشّمس مُحاطةً بأشكالٍ ورموزٍ سرّية.

وقد كان الكهف، بالفعل، قصراً ملكيّاً، سكنه ذات زمان مِلكٌ عظيمٌ، متزعّماً شعباً عظيماً عريقاً بنىٰ حضارةً وترك آثاراً واضحةً بعد أن قضى هو وشعبُه وزالوا من الوجود. ولم يعلم أحدٌ لا كيف حضر هذا



الملك وقومُه، ولا كيف اختفوا. فقد تركوا أسطورة تناقلتها الأجيال ولم يهتدِ إلى كشف أسرارها أحد.

تأمّل «سدر» التّرس وأمعن في النظر إلى الرموز المنقوشة عليه، فصعُب عليه فهمُها، فجال بنظره على محتويات الكهف ـ القصر النفيسة، فوقع نظره على تمثال ضخم غريب الهيئة تشعّ من على جبينه درّة حمراء، فشدّه الفضول إلى الحصول عليها، فتسلّقه متجشّماً صعابه حتى تمكّن من



الحصول على الدّرّة الحمراء، فنزعها من مكانها، وعاد فنظر إليها متأمّلاً جمالَها وسحرها وهي تشعّ وترهج وتضيء المكان، فرانَتْ منه التفاتةٌ إلى «ترس الحسرات» فوجده قدِ انداحَ من مكانه مُفْرِجاً عن مدخلٍ عميقٍ، فتقدّم نحوه فرأى كتاباً عتيقاً توشك أوراقُه ودُفَّتاه على السّقوط والتفتّت، فوضع الدرّة الحمراء في وسطه وحمله بكلتا يديه بحذر، ودخل النّفق ليستكشف معالمَه، ولكنّ التّرس عاد إلى وضعه السابق، وبقي «سَدِر» في النّفق المُعتِم، ولكنّ الدرّة الحمراء أنارت الطريق أمامه، فلم يجد بدّاً من السّير عبر النّفق. وراح يسير والدرّة الحمراء تضيء الطريقَ أمامه حتى

انتهى إلى حجرة كان في وسطها قفص، فعالَجه «سَدِر» حتى دخله وجلس على مقعد حجريّ كان في داخله. وحدثَتِ الأعجوبةُ التي لم يدرك كنهَهَا «سَدِر» ولا تمكّن أحدُ من بعده فكَّ أسرارها: فقد انزلق القفصُ وجرى بسرعة البرق، وراح يطوي المسافات عبر ظُلمة الأنفاق ويُقطّع معها أنفاسَ «سَدِر» إلى أن توقّف فجأة.

لم يدْرِ «سَدِر» كم من الزّمن مضى ولا كم من المسافات اجتازَ في الأنفاق وقد عبرهـا بسرعةٍ هائلةٍ لم يستطع أثناءها التأكّد من الأشياء التي مرّت أمام ناظريه. ألفىٰ «سَدِر» نفسَه في حجرة تقع في مكان مهجور يضمّ أطلال مدينة بائدة نبتَ العشبُ بين أحجار جدرانها.

سار «سَدِر» بعيداً في المدينة المهجورة سالكاً درباً ضيّقةً تعرَّجت أمامه وراح يطوي المسافات من جديد، ولكن هذه المرّة على أرضٍ صلبةٍ تتوزّع الوِهادُ على جنبَاتِها مُوَشّاةً بالأزهار المُشعشِعة بالنّور، فإذا به يصل في نهاية المطاف أمام كوخ الشيخ الوقور الذي التقاه من قبل. وظهر الشيخ أمامه فجأةً، وعلى وجهه ابتسامةٌ كضياء الشمس وقال له:

- أيّها الفتى الشّجاع؛ لقد حقّقتَ غايَتكَ النبيلة، ووقفتَ على أسرار الدّنيا، والكتابُ الذي بين يديك هو كتابُ حكمة الأوائل الذين عاشوا قبلنا، فما عليك الآن إلّا أن تذهب إلى النّاس وتخدمهم وتفيدَ من كتاب الحكمة الذي هو الكنز الحقيقيّ المرصود.

قال «سَدِر»:

- وقد فزتُ بدرّة حمراءَ نفيسة أيضاً!

ثمّ راح يبحث عن الـدرّة الحمراء في وسطه وفي ثيابه فلم يقع عليها... فقد سقطت منه عندما كان ينزلق في الأنفاق بسرعة دون أن ينتبه

للأمر. ردّ الشيخ الجليل وقال:

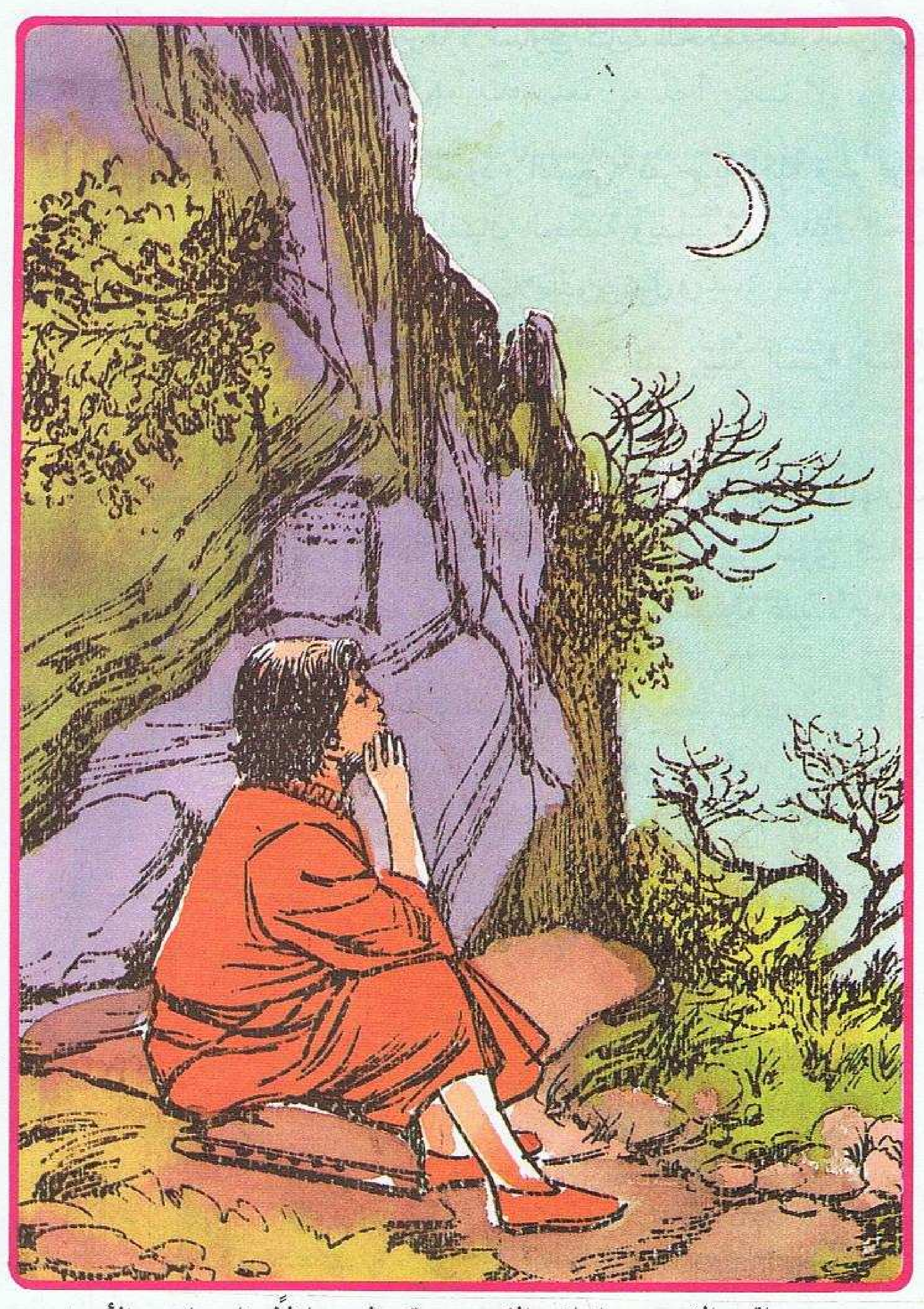
- إنّ كلّ جواهر الدنيا ودُرَرِها لا تساوي كتاب الحكمة هذا الذي بين يديك، فلا تحزن ولا تأسف!

عاد «سَدِر» إلى أهله بعد أن ودّع الشيخ، ففرح به أهلُه وبنو قومه فرحاً عظيماً. ومن ثمّ راح يُعلّم الفتيانَ الحكمة ويبذر فيهم بذور الحقّ والخير والجمال، وكان دائماً يُردّد أمام تلاميذه ويقول:

- بالصّبر والجَلَد والمُثابرة والعزيمة التي لا تلين يبلغُ المرءُ أسمى الغايات.

وحدث أن ضرب زلزالُ المنطقةَ بأسرها، فانهارتْ جبالُها وانهارتْ مدُنُها واختفت، وكان كهفُ الحكمة من بينها، ولم يبقَ سوى كتاب الحكمة شاهداً وحيداً على الحقيقة وعلى الأسطورة المُتداولَة عبر الأجيال.

* * *



« سدر » يراقب القمر بعد انبلاج الفجر ، وقد ظهر هلالاً مثل حاجب الأميرة .



إن كل جواهر الدنيا ودررها لا تساوي كتاب الحكمة هذا الذي بين يديك .

١ نابغة مملكة سبأ

٢ كنوز كهف الحكمة

٣ أسرار غمام ديلمون

٤ عندليب الغيب

٥ ملك اليمن السعيد

٦ أمير العمالقة

٧ السياف الدمشقي

٨ ملك بابل المهيب

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣
هاتف وفاكس: ٠٠/١٢١٢٤٧٨١٣٧٣ 00/12124781373